د. وسام جبران

من التبئير إلى التفكيك:

جمال ضاهر وسؤال الفلسفة والسلطة في الحضارة العربية الإسلامية

مقالة

الناصرة

تشرين أول 2025

Gibran Publishing

Publishing Literature and Music Online

© 2025. All rights reserved.

من التبئير إلى التفكيك: جمال ضاهر وسؤال الفلسفة والسلطة في الحضارة العربية الإسلامية

مقالة

الملخص

تقدّم هذه المقالة قراءةً نقدية لمشروع جمال ضاهر الفكري كما تبلور في كتابيه: "**في الحضارة العربية الإسلامية وفي حركة العلوم والفلسفة فيها**" (بيروت: دار الفارابي، 2023) و "**النساء والرسول والسياسة**" (بيروت: دار الفارابي، 2024). وهما استمرار لمشروع بدأ مع كتاب **"من الحضارة العربية الى الحضارة العربية الإسلامية"** (بيروت: دار الفارابي 2021). وتتناول الكيفية التي يعالج بها ضاهر إشكالية المركزية، سواء الغربية أو العربية، عبر "الالتفات إلى الذات"، والتي سأسمّيها **منهجيّة التّبئير**، بوصفها بديلًا نقديًّا. هذه المنهجية تهدف إلى قراءة التراث الفكري العربي-الإسلامي من داخله، بعيدًا عن المقارنة المستمرة بالغرب، ومن دون السقوط في فخ استبدال مركزية بأخرى.

تُبرز الدّراسة تصوير ضاهر للإمام علي بن أبي طالب مؤسِّسًا لنسق فلسفي متماسك في الثقافة العربية، قائم على مفاهيم مثل الوحدانية الإلهية، والأزليّة والزمن، والزهد، باعتبارها مقدمات منطقية وفلسفية أسست لعقلانية عربية مبكرة. كما تُناقش المقالة جدلية الأصالة والهجنة في الفكر العربي قبل الإسلام، حيث يعيد ضاهر تعريف "الأصالة" لا باعتبارها نقاءً ثقافيًا، بل باعتبارها قدرة على تحويل التداخل الحضاري إلى إنتاج إبداعي.

وتُحلّل المقالة كذلك تطوّر مفهوم التدوين عند ضاهر: ففي كتابه الأول يظهر شرطًا معرفيًا لانبثاق الفلسفة، بينما في كتابه الثاني يغدو أداة سلطة لإعادة تشكيل الخطاب، خصوصًا فيما يتعلق بصورة النساء. بهذا الانتقال ينتقل مشروع ضاهر من الدفاع عن أصالة الذات إلى نقد بنيتها الداخلية.

وبوضع مشروع ضاهر في سياق النقاشات العربية المعاصرة (الجابري، طرابيشي، محمد محمود وسواهم) والنظريات ما بعد الكولونيالية (إدوارد سعيد، هومي بابا، إلخ)، تُظهر الدراسة أن منهجيته تسهم في تفكيك كلٍّ من المركزية الغربية والمركزية العربية. وبذلك يقدّم ضاهر الفلسفة العربية بوصفها مشروعًا تاريخيًا أصيلًا وحوارًا كونيًا مفتوحًا.

من الدفاع عن أصالة الذات إلى نقد بنيتها وسلطتها تحوّلٍ منهجيٍّ واضح في فكر ضاهر: ففي الكتاب الأول، نجده ينشغل بإعادة الاعتبار للعقل العربي، بوصفه قادرًا على إنتاج تفلسف نسقيٍّ مستقلٍّ، من خلال قراءة نصوصٍ مؤسِّسة كخطب علي بن أبي طالب ومقولاته الفلسفية. أمّا في الكتاب الثاني، فيذهب نحو تحليل العلاقة بين النصّ والسلطة، وكيف تُعاد كتابة التاريخ والفكر من منظور الغلبة السياسية والذكورية.

بهذا المعنى، يمكن النظر إلى مشروع ضاهر في امتداده الكامل بوصفه انتقالًا من التبئير (focalisation) إلى التفكيك (deconstruction)، ومن بناء منهجٍ لقراءة الذات إلى هدم بنياتها السلطوية المتجذّرة.

إنّه مشروع يسعى إلى تأسيس فلسفةٍ عربية نقديّة، قادرة على مساءلة ذاتها قبل أن تواجه الآخر.

المركزية والتبئير:

منذ بداية مشروعه الفكري، يضع جمال ضاهر مسألة **المركزية** في صلب اهتمامه، ليس فقط بوصفها قضية نظرية، بل باعتبارها عقدةً معرفية وثقافية يعيشها العقل العربي منذ صدمة الحداثة. فقد انشغل الفكر العربي، منذ أواخر القرن التاسع عشر، بالسؤال: هل نحن مجرد امتداد للآخر، أم لنا أصالة نستطيع أن نقيم عليها مشروعنا؟ وقد قاد هذا السؤال إلى نزعتين متناقضتين:

1. نزعة استشراقية ترى أن الفكر العربي ليس سوى ظلٍّ للفكر اليوناني أو ناقلٍ له.
2. نزعة دفاعية-قوموية تحاول إثبات أن الذات العربية مركز قائم بذاته، وأحيانًا عبر تمجيد لا يخلو من تكلّف.

يرى ضاهر أن كلا النزعتين تسقطان في **المركزية**: الأولى تجعل الغرب مركزًا مطلقًا، والثانية تسقط في إنتاج مركزية بديلة. ومن هنا يطرح مفهومه البديل حول "فهم الذّات" بعيدًا عن منهجيّاتٍ أخرى مُشتّتة. وقد اخترت أن أطلق على منهجيّة ضاهر اسم **التبئير** (focalisation).

في كتابه *في الحضارة العربية الإسلامية وفي حركة العلوم والفلسفة فيها*، يوضح ضاهر منذ المقدمة أن غايته ليست منافسة الغرب على مركزية جديدة، بل إعادة قراءة الفكر العربي من داخله، بوصفه **بنيةً تاريخية ذات مسار خاص**. يقول:

" بما يتعلق بالتقوقع على الذات، وبالمركزيات، فإن التقوقع على الذات لا يكون بتسليط الضوء عليها وبمحاولة معرفتها وفهمها، بل ولا يكون بعدم الالتفات إلى غيرها، إنما بالانكفاء والاكتفاء بها. وكذلك المركزية، فمعناها أبدا ليس الحديث عن شيء دون الإشارة إلى علاقاته، إنما التنظير للعالم أنه يتمحور

حول ذات دون أخرى، أنها بادئة الأشياء وأن مصادر المعرفة عندها، ومعيار الصواب ومعيار الأخلاق؛ وغيرها، لا شيء سوى صدى صوت لها. كان الحديث عن مركزية غربية أم غير غربية"[1]

ليس هدف ضاهر، إذن، أن يستبدل المركزية الغربية بمركزية عربية بديلة، بل أن يضع الفكر العربي في بؤرته الداخلية، يقرأه في تناقضاته وتطوره من دون قياس دائم على الآخر بالضرورة.

هذا التصريح يضعه في مواجهة مع نزعات شاعت في القرن العشرين، من بينها ما نجده عند **محمد عابد الجابري** الذي حاول، في مشروعه *نقد العقل العربي*، أن يضع العقل العربي في مواجهة العقل اليوناني والعقل الغربي الحديث. فرغم قيمة مشروع الجابري، إلا أن ضاهر يجعلنا نرى أن مشروعًا كمشروع الجابري بقي أسيرًا للمقارنة بالآخر، فجعله المعيار الذي تُقاس إليه الأصالة أو العجز.

أما عند ضاهر، فمنهجيّة التبئير عنده تعني أن **يُفهم العقل العربي انطلاقًا من نفسه**: من لغته، من نصوصه، من رموزه الأولى، وعلى رأسها علي بن أبي طالب الذي قرأه بوصفه مؤسِّسًا لمنهج تفلسفيٍّ عربيٍّ قبل أي ترجمةٍ عن اليونان، مما جعله يتحرّر من ثنائية "الأنا/الآخر" التي كبّلت الكثير من النقاشات العربية.

مخاطر التبئير: التّمجيد والانغلاق

لكن ضاهر واعٍ تمامًا أنّ التبئير نفسه ينطوي على خطر: فقد ينزلق بسهولة إلى تمجيد الذات. لذلك يشدّد على ضرورة الانتباه إلى أثر التداخل الحضاري. فالعرب لم يكونوا

[1] ضاهر، جمال. "*في الحضارة العربية الإسلامية وفي حركة العلوم والفلسفة فيها*". *الفارابي، 2023. ص 15*

معزولين: لغتهم تأثرت بالآرامية، حياتهم الاجتماعية تفاعلت مع اليهودية والمسيحية والفارسية. إنما القيمة في قدرتهم على تحويل هذا التداخل إلى إنتاج جديد.

هذا التحوّل المنهجي من المقارنة إلى التبئير يمكن تفسيره، بل تعميقه، في ضوء نظرية **هومي بابا** حول ***"موقع الثقافة"*** (The Location of Culture). فكما يرى بابا أنّ الخطاب ما بعد الكولونيالي لا يولد من داخل المركز ولا من أطراف الهامش، بل في فضاءٍ ثالثٍ هجينيٍّ يُنتج معانيه عبر التفاعل والاختلاف، كذلك يسعى ضاهر إلى تموضع الفكر العربي في "موقع ثالث "بين التقليد والتغريب، بين الأصالة والتمثّل، بين الانغلاق والتبعية.

التبئير، بهذا المعنى، ليس مجرّد "عودةٍ إلى الذات"، بل إعادةُ موضعةٍ للذات داخل فضاءٍ معرفيٍّ حواريٍّ.

إنّ الفكر العربي، في نظر ضاهر، ليس في حاجةٍ إلى الانغلاق في هويةٍ نقيةٍ متخيّلة، ولا إلى الذوبان في الآخر تحت لافتة "العالمية"، بل إلى إنتاج معرفةٍ من موقعه الخاص؛ موقعٍ يلتقي فيه التاريخ بالكوني، والخصوصي بالإنساني.

وبذلك يصبح مشروع ضاهر أقرب إلى ما يمكن تسميته **"تأويليّة الموقع"**، أي قراءة الفكر العربي من النقطة التي تتقاطع فيها اللغة والسلطة والهوية والذاكرة. وهو ما يمنحه طابعًا فلسفيًا لا يقل عمقًا عن النظريات المعاصرة في النقد الثقافي، وإن ظلّ متمركزًا في تربته العربية الإسلامية.

التبئير والسلطة: من الدفاع إلى النقد

في كتابه الثاني *النساء والرسول والسياسة*، ينتقل ضاهر خطوة أبعد: لم يعد التبئير مقتصرًا على الدفاع عن أصالة الذات، بل صار وسيلة لكشف كيفية إعادة إنتاج الذات عبر السلطة

والتدوين. فالنصوص التي وصلت إلينا عن النساء مثلًا ليست حيادية، بل أعيدت صياغتها لتخدم الشرعية السياسية والدينية للدولة الناشئة.

يربط ضاهر موضوع "عصر التدوين" بإعادة صناعة الصورة وبوظائف الذاكرة، في إطار نقده لطرح الجابري:

> "جاءت إشارة الجابري لعصر التدوين من باب محاولته، بين الأشياء، للتشكيك بأي صورة أو فكرة حسنة قد تكون وصلت إلينا عن العرب، عرب ما قبل الدعوة الإسلامية وعرب العصر الإسلامي الأول، ولتأكيد أن لا شيء يمسك بهم سوى القصور والجهل والجهالة. يقول: ولكن تدوين العلم وتبويبه، حتى بمعنى الجمع والتصنيف لا غير، لا يمكن أن يتم بدون رأي إذ لا بد من انتفاء وحذف وتصحيح وتقديم وتأخير ... وهي عمليات تصدر عن رأي ولا بد".[2]

هذا التحول يُظهر نضجًا في مشروع ضاهر، لكونه لم يتوقّف عند إثبات الأصالة ضد الغرب، بل تجاوز ذلك إلى نقد الذات في بنيتها الداخلية العميقة. هنا نجده متقاطعًا مع جورج طرابيشي الذي انتقد مشروع الجابري نفسه، معتبرًا أن مشكلته تكمن في أنه وقع في "أدلجة" الذات العربية. ضاهر بدوره يتفادى هذا المُنزلق بتفكيك النصوص من الداخل، لا بتأطيرها في مشروع قومي جديد.

المركزية والتبئير: سؤال سياسي وثقافي

ليست مسألة المركزية عند ضاهر مجرد نقاش منهجي، بل هي أيضًا سؤال سياسي وثقافي. فالمركزية الغربية، حين تُفرض كمعيار، تضع العرب في موقع التبعيّة، وتجعلهم مجرد "هوامش" على نَصّ الغرب. أما المركزية العربية البديلة، فهي خطرٌ لأنها تؤدي إلى

---

[2] ضاهر، جمال. "*النساء والرسول والسياسة*". *الفارابي 2023*. ص 199

الانغلاق وإلى إنكار التداخل الحضاري. وبين هذين الموقفين، يقترح ضاهر منهجيّة "التبئير" أو "فهم الذّات"، تحليلها، وتفكيكها، انطلاقًا من صُلب تُربتها. وهذه المنهجيّة تقوم على أربعة أسس:

1. قراءة الذات من داخلها.
2. الاعتراف بالهُجنة الثقافيّة.
3. الانفتاح على الآخر من موقع الندّية لا التبعية.
4. تجاوز المنطق النقدي للاستشراق.

هنا، ولتوضيح النقطة الرابعة، يمكن أن نستعيد أطروحة إدوارد سعيد في *الاستشراق* (1978)، حيث أوضح كيف أنتج الغرب "شرقًا" متخيَّلًا يخدم مصالحه الاستعمارية. ضاهر، وهو يعارض هذا التخييل، لا يسقط في فخ رد الفعل، بل يقترح إعادة بناء الذات انطلاقًا من رموزها الفلسفية (علي، الكندي، الخليل بن أحمد). لكنه، بخلاف سعيد الذي ركّز على خطاب الآخر، يركّز ضاهر على خطاب الذات نفسها، بوصفها موضوعًا للنقد والتبئير.

نحو أفق كوني

في النهاية، يرى ضاهر أن التحرر من المركزيات لا يعني الانغلاق في "خصوصية" ضيقة، بل يعني الانفتاح الكوني. الذات العربية، حين تُبئِر نفسها، تدرك أنها جزء من حركة الفكر الإنساني الشاملة. فهي ليست فرعًا من الغرب ولا نسخة منه، لكنها أيضًا ليست معزولة. إنما هي مساهمة أصيلة في حوار كوني حول الوجود والزمن والمعرفة.